الزمـــان والذاكـــرة

قراءة معاصرة فـى فلسفـــة القديس أوغسطين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا
وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ .

سورة السجدة (آية ١٥)

" سأكون دائما معترفا بالجميل للذين بفضلهم أستمتع بوقتي من غير عائق أكثر من اعترافي بالجميل لمن قد يهدون إلى أكبر ما في الأرض من مناصب التشريف " .

ديكارت : خاتمة المقال عن المنهج

الزمان والذاكرة

قراءة معاصرة فى فلسفة القديس أوغسطين

تمهيد :

الانسان يعيش الزمان قبل ان يتامله . وهو لا يعيش حاضره فقط كما تفعل معظم الكائنات بل انه قادر على أن يرنو إلى ماضيه القريب او البعيد ، وأن يستحضره ويتعايش معه ويعيشه . كما أنه قادر على أن يقذف بنفسه فى المستقبل وأن ينسج لنفسه آمالا وأحلاما وردية يسعد بها ويستعد لتحقيقها . فالانسان كما يقول هيدجر " كائن الاستشعار البعيد " etre des lointains

ولا يغيب عن أذهاننا أن الحياة الروحية لدى "الحكيم" إنما تنبع من المواقف المتعددة التى يتخذها تجاه خبراته الماضية وذلك بهدف تحقيق غايات مستقبله . كما أن "التأمل المنصب على الزمان هو الاختبار الحقيقى للفيلسوف " وذلك إذا أخذنا بما يقوله المفكر الفرنسى آلان Alain (١٨٦٨ - ١٩٥١) (١) .

وقد يظن لأول وهلة أن " مشكلة الزمان " مشكلة فلسفية معاصرة، والحقيقة انها قديمة قدم الفلسفة ، إذ نجدها عند افلاطون وارسطو ولوقريطس Lucrèce قديما (٢) ، وعند القديس أوغسطين فى العصور الوسطى (٣) .

---

(1) Alain E. : "Eléments de Philosophie", Citation no 1363 in: (Denis Huisman, La philosophie en 1500 citations, F. Nathan, 1963).

(٢) راجع : "لمحات من جهود الباحثين" ص ٣٧

(٣) القديس اوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠م) ، ولد فى طاجستا فى شمال افريقيا (الآن سوق الأخرس من أعمال الجزائر) ، من أب وثنى وأم مسيحية . وتضلع فى اللغة اللاتينية ونهل من الفلسفة الأفلاطونية وتعمق فى فهم العقيدة المسيحية . ودرس فى قرطاجنه وروما وميلانو ثم عاد إلى طاجستا وعاش بها خمسا وثلاثين سنة مدافعا عن الايمان باللسان والقلم حتى أتته =

وإذا كان الفكر المعاصر ينحو بالمسألة نحو علاقتها بالانسان فيؤكد على أن الزمان فى النفس وليس العكس (٤) ، فاننا نجد فى نصوص القديس أوغسطين ما يعد إرهاصا وسبقا فى هذا المجال ، حتى أننا لا نبالغ إذا قلنا أن نصوص أوغسطين تتضمن الجذور الأولى لتلك النظرة المعاصرة .

وفى هذا المعنى يقول الفيلسوف المعاصر إدموند هوسرل فى مستهل " دروس من أجل فينومينولوجيا الوعى العميق بالزمان " :

> " إن تحليل الوعى بالزمان هو المشكلة المزمنة التى التف حولها الباحثون عبر القرون عندما تركزت جهودهم فى الدراسة الوصفية لحالات النفس وفى نظرية المعرفة . وأول من تجشم مشقة التعمق فى الصعوبات التى ينطوى عليها البحث فى الزمان ، وأول من عانى فى سبيله إلى درجة اليأس ، كان القديس أوغسطين . فالفصول من الثالث عشر إلى الثامن والعشرين من الكتاب الحادى عشر فى "الاعترافات" ينبغى أن تدرس اليوم بعمق لكل من يهتم بمسألة الزمان " (٥) .

=المنية ، والبرابرة يحاصرون مدينته . (الأب جورج قنواتى : "أوغسطين" فى : "أعلام الفكر الانسانى" ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٤ م) .

(٤) سنجد هذا عند الأمريكى وليم جيمس والفرنسى برجسون والوجوديين بعامة .

(5) Ed. Husserl: "Leçons pour une phénoménologie de la conscience intime du temps", trad. H. Dussort, (Ed. P.U.F., Paris, 1964).

وقد أردنا فى هذا البحث - عملا بوصية الفيلسوف هوسرل - أن نعود لقراءة نصوص أوغسطين عن "الوعى بالزمان"، وأن نناقشها على ضوء معرفتنا بتطور هذه المسألة فى الفكر الحديث والمعاصر. كما أردنا أن تقتصر الدراسة على ما يتصل فى نصوص أوغسطين بعلاقة الزمان بالذاكرة، خصوصا وأن هذه العلاقة هى التى جعلت للقديس أهمية خاصة فى الفكر المعاصر، إذ أنها ارتقت بفكره إلى مراتب النظريات المعاصرة.

وإتماما للفائدة، فقد ذيلنا البحث بلمحات من جهود الباحثين فى مشكلتى الزمان والذاكرة منذ القدم وحتى الان.

وننبه القارئ إلى أننا نعتمد على ثلاث ترجمات فرنسية لكتاب " الاعترافات " هى :

1. St. AUGUSTIN: "Confessions", trad. J. Trabucco, Éd. Garnier-Flammarion, Paris 1964.

2. Les Confessions de Saint-Augustin, traduction nouvelle, par Paul Janet, Éd. Bib. Charpentier, Paris 1919.

3. Oeuvres Complètes de Saint Augustin, Evêque d'Hippone, traduites en français et annotées par MM. Péronne, Ecalle, Vincent, Charpentier et H. Barreau. (Éd. L. Vives), Paris 1873.

ولذا ، فإننا اقتصرنا فى الحواشى على ذكر أرقام الفصول والأبواب من دون الصفحات بالنسبة لبعض النصوص التى استوضحناها فى أكثر من مصدر واحد من المصادر الثلاثة السابقة .

والله أسأل أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه ، فهو نعم المولى ونعم النصير .

جامعة الاسكندرية
الأحد ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٩١ م
الموافق ١٦ جمادى الآخرة ١٤١٢ هـ

دكتور
عبد الوهاب جعفر

يبدأ الباب الحادى عشر من كتاب "الاعترافات" لأوغسطين بتأملات فى الكتاب المقدس، وعلى وجه الخصوص مسألة الخلق. وفى محاولته لفهم الجملة الأولى فى سفر التكوين واجهته صعوبات تتصل بمفهوم "البدء" أو "البداية"* . ولذا جاء التمييز بين "الزمان" و "الأزلية" عنده للتغلب على تلك الصعوبات. فبداية الزمان تفترض بالضرورة "علة أزلية" خارج هذا الزمان. لأن تلك العلة لاتفهم فى الزمان إلا على اعتبارها امتدادا له فيما لانهاية، مما يتعذر معه تصور فكرة الخلق. الأزلية إذا ليست امتدادا للزمان، ولايمكن تصورها إلا فى علاقة تقابل معه.

يقول أوغسطين فى الفرق بين الزمان والأزلية :

> " إن طول الزمان لا يفسر إلا بتتابع كثرة من الآنات ليس من الممكن أن تكون متزامنة ، لأن الزمان لا يمكن أن يكون كله حاضرا ، فى حين أن الأزلية ليس فيها مجال للتتابع لأنها كل حاضر ". (١)

الأزلية إذا تستبعد سَيْل الزمان . وربما كان من الممكن أن نتمثلها باعتبارها زمانا لا يمضى ولا ينقضى رغم ما فى هذا من تناقض . غير أنها فى هذه الحالة لن تكون زمانا " لأن وجود ما لا يمضى ولا ينقضى يؤدى إلى استحالة الزمان الماضى ، وإلا يستجد أى يحدث يؤدى إلى استحالة الزمان المستقبل . وإن لم يكن هناك شئ على الاطلاق انتفت هوية الزمن الحاضر " (٢) .

---

(١) (1) Les Confessions, XI, 11.

* الجملة الأولى فى " سفر التكوين " (فى البدء خلق الله السموات والأرض) .

(٢) (2) Conf., XI, 14.

الأزليــة إذاً ليست زمانا . فالزمــن ينحل إلى ماض وحاضر ومستقبــل ، فى حين أن الأزليــة لا تنحـل لأنها موحدة الهوية .

وكان الزمان عند أفلاطون سلبا للأزليـة ، لكونـه يرتبـط بالحركـة ، (وكل ما يرتبـط بالحركـة ليس أزليـا) ، وهو لا يستخلـص هذا المفهوم من الواقع الموضوعى بل يشتقـه من ثوابت عقدية (أى دينيـة) : فاللـه خلق الزمان لكى يضع بـه حدا لاستمراريـة الكائنـات غير الأزليـة . ومع ذلك فالزمـان فـى حقيقتـه صورة للأزليـة ، غير أنها صورة ديناميكيـة أى متحركة ، فى حين أن الأزليــة تتصف بالوحـدة والثبـات (٣) .

أما عند أرسطو، ففى مقابل الحركة فى عالم يخضع للكون والفساد، يخلص المعلم الأول إلى "الوجود الواجب"، خارج الزمان، وهو وجود محرك أول غير متحرك، أزلى، هو الله أما الزمان عنده فهو القياس الواقعى للحركة.

وقد أخذ أوغسطين هذا التصــور الأرسطـى للزمان بعـد أن أدخل عليـه إضافـة جديدة ربما كانت أفلاطونيـة المصدر : " أن اللـه خالق الزمان " .

يقـول أوغسطيـن :

> " لنلاحـظ جيدا أن وجود العالـم لا يتزامـن - فـى مذهبنا - مع وجود اللـه . وبعبـارة أخرى ، فإن ما نطلق عليـه أحيانا أزلية العالـم لا يتسـاوى مع الأزليـة المقدسة خصوصا وأن اللـه خلق العالـم ، وأن الأزمنـة لم تبدأ فـى الوجود إلا مع الخلق ذاتـه ، أى أنها

(3) PLATON: "Timée", dans: Oeuvres Complètes, t.X, trad. Albert RIVAUD, Collection Guillaume Budé, Paris 1925, PP. 150-152.

ترد إلى بداية الخلق ؛ وهي بهذا المعنى فقط يقال عنها أزلية لا بنفس المعنى الذى نطلق به هذه الصفة على الله لأن الله يوجد قبل الزمان ، فهو مبدعه سبحانه " (٤) .

وبخصوص التساؤل : لِم خلق الله العالم فى وقت معين دون وقت آخر ؟ أو لِم اختار وقتا معينا للخق من دون أى وقت آخر ؟ أو لِم لَمْ يتم الخلق من قبل ذلك بعدة ملايين من القرون ؟ يجيب أوغسطين :

" مع اعتقادنا بأن الله قد خلق السماء والأرض فى بداية الزمان ، ينبغى أن نفهم أنه قبل مبدأ الزمان هذا لم يكن الزمان قد وجد بعد . فالله خلقه هو أيضا ، وقبل أن يخلقه لم يكن له وجود . ونحن لا يمكننا القول بوجود زمان لم يخلق الله فيه شيئا ، إذ كيف يمكن أن يوجد زمان لم يخلقه الله خصوصا وأنه سبحانه بديع كل زمان ؟ فإذا كان الزمان قد بدأ فى الوجود مع وجود السماء والأرض ، فلا وجود لزمان لم يكن الله فيه خالقا للسماء والأرض . وعندما نقول : لِم ظهرت إرادة الخلق لديه سبحانه فجأة ؟ فإن هذه الكلمات تفترض وجود فترة لم يفعل الله فيها شيئا ، ولكن كيف يمكن افتراض صيرورة واقعية فى حين أن الزمان لم يوجد بعد "(٥)

---

(4)"De Genesi Contra Manichaeos," livre I, ch. II, in: "Oeuvres Complètes de St. Augustin", Op.Cit.,t. III, P. 425 a,b.

(5) Ibid.

يظهر لنا من هذا النص أن خلق الزمان يتزامن مع خلق السماء والأرض. غير أن هذا التساؤل الأخير عن " صيرورة واقعية " يدعونا إلى أن نتساءل بدورنا عن واقعية الزمان في الفلسفة بوجه عام وعند أوغسطين على وجه الخصوص .

إن الكلمة اللاتينية REALITAS الدالة على الواقعية قد اشتقت من كلمة RES التي تعني " شيئا ماديا " . ومع ذلك فلا يمكن أن يكون هذا المعنى هو الذى قصد إليه أوغسطين في تصوره للزمان ، خصوصا وأن كلمة " شئ " RES من الممكن أن تشير إلى موجود ميتافيزيقي أيضا . ففي القرن السابع عشر ميز ديكارت بين الشئ الممتد والشئ المفكر . والله سبحانه وتعالى يقول : " ليس كمثله شئ وهو السميع البصير " (٦) .

وعلى الرغم من عدم إمكانية تصور الوجود المادى للزمان ، إلا أن واقعيته لا يمكن أن تكون موضع شك عند أوغسطين أو عند غيره .

فقديما كان الزمان عند أرسطو هو القياس الواقعي للحركة (٧) . كما تحدث ديكارت عن الزمان فقال عنه " إنه عدد الحركة " (٨) . وكان الزمان عند نيوتن إطارا واقعيا يحتوى حركة الأشياء ويستقل عنها (٩) !

(٦) سورة الشورى (آية ١١) .
(٧) أرسطو : " الطبيعة " ، الكتاب السابع والثامن ، و"ما وراء الطبيعة " ، الكتاب الثاني عشر .
(٨) ديكارت : " مبادئ الفلسفة " : ترجمة عثمان أمين ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠ ، ص ١٥٣.

(9) Newton: "Principes mathématiques de philosophie naturelle", trad. Mme Chastellet, in A. Koyré, Du monde clos à l'univers infini, Gallimard, coll. Tel. PP. 195-196. Cité par : G. DUROZOI: "Philosophie terminale", Nathan 1989, P. 62.

وفى الفلسفة المعاصرة ، كان موقظ الحركة الفكرية فى أسبانيا ميجل أونامونو Unamuno يقول : " إن الزمان طاغية مستبد " (١٠) . والمفكر المعاصر لانيوه Lagneau يرى أن الزمان يظهر ما فى طبيعتنا من عجز : فكل مفقود يمكن استعادته أو تعويضه إلا الوقت إذا ضاع (١١) . ويقول مارسيل بروست : " ينبغى أن نفهم أن ساعة الوقت هى وعاء يمتلئ روائح وأصوات ومشروعات وطقوس " (١٢) .

ولا تقصّر اللغة المستخدمة فى تأكيد ما للزمان من واقعية : " فالزمن كالسيف إن لم تقطعه قطعك " ، والزمن - فيما يقول أحد المتصوّفة - " كالمبرد يسحقك ولا يمحقك " ، و" لمْ نعد نملك الوقت" فيما يقول عامة الناس .

لا اختلاف إذاً على واقعية الزمان - بوجه عام - فى التصور القديم أو الحديث أو المعاصر . ومع ذلك ، فإننا نجد فى الفلسفة الحديثة تعارضا مع أوغسطين على مستوى آخر .

فالنيوتونيون يرادفون بين الأزلية المقدسة وأزلية الزمان أو "لا نهائيته " ، وهم بهذا يبتعدون تماما عن تصور أوغسطين . فهم يزعمون أن الأزلية المقدسة دوام مطلق ، والزمان المطلق يتدفق باضطراد على نمط رياضى محكم . ولا وجود لحركة تضطرد بتناسق يمكنها من قياس هذا الزمان . وليس أدل على ذلك من تتابع الليل والنهار والأشهر والسنوات ، فهى تتتابع ولا تتساوى تماما فى دوامها

(10) A. VERGEZ : "Nouveau Cours de Philo.", (Nathan 1981), P. 119.

(11) Ibid.

(12) Proust, : "Du côté de chez Swann", citation nº 1371 in: "La philosophie en 1500 citations" Op.Cit.

، ومن ثم لا تصلح لقياس الزمان المطلق الذي يحتوي الموجودات والأشياء دون أن يكون على علاقة بها (١٣) * .

وفي مقابل هذا التصور عند نيوتن ، كان تصور الزمان عند الفيلسوف ليبنتز مخالفا تماما للتصور النيوتوني ، كما كان يقترب كثيرا من تصور القديس أوغسطين .

فالزمان عند ليبنتز ليس إطارا واقعيا يحتوي حركة الأشياء بل هو نظام تتابع الأشياء أو هو العلاقة المنظمة لتواجدها . فالله خلق العالم ، ومع هذا الخلق ظهر الزمان باعتباره علاقة منظمة لظهور الأشياء (١٤) . وهذا يعني أن بداية الخلق هي بداية الزمان كما هو الحال عند القديس أوغسطين .

ورأى ليبنتز في نقده لتصور نيوتن أننا إذا افترضنا الزمان إطارا واقعيا أزليا لامتناهيا يحتوي العالم ، فإن مثلنا " كمثل من أسكن ذبابة صغيرة جدا في قفص كبير جدا " (١٥) .

---

(13) Newton: "Principes mathématiques de philosophie naturelle", in A. Koyré, Op.Cit., PP. 195-196.

* عند نيوتن ، الله دوام مطلق ، وحضور دائم ، وهذا الحضور الدائم هو الذي أوجد الزمان ، أو أن الزمان صفته ونمط وجوده سبحانه . (نفس الموضع) .

(14) G.-W. Leibniz, "5 e Réponse a clarke", in A. Koyré, Du monde clos à l'univers infini, PP. 323-324. Cité par DUROZOI, "Philosophie", Op.Cit., P. 63.

(١٥) جاء هذا النقد الساخر في خطاب وجهه ليبنتز إلى الفيلسوف الانجليزي صمويل كلارك Clarke (١٦٧٥ - ١٧٢٩) ، وكان من المتحمسين للفكر النيوتوني .راجع :

"La philo. en 1500 citations" Op.Cit., P. 171.

كما كان ليبنتـر يستبعـد صفـه اللامتناهـى فـى تصـور الزمان ، لأنهـا تجعل من المتعـذر علينـا أن نفسـر بدايـة الخلق فـى لحظة منـه دون لحظة أخرى كما يتعـذر العثـور على سبب كاف لتبريـر لحظة الخلق هذه (١٦) .

وهكذا يظهر لنـا التقـارب بيـن ليبنتـز وبيـن القديس أوغسطين فـى مفهومهما لبدايـة الخلق وبدايـة الزمان ، كما سبـق أن رأينـا الاتفـاق بيـن نيوتـن وأوغسطين على واقعيتـه .

ولكن ، ماذا عن طبيعـة هذا الواقـع ؟ ما الزمان عند أوغسطين ؟

هل هو حركة الشمس والقمـر وسائـر الأجـرام السماويـة ؟ يجيب أوغسطين بالسلـب ، وذلك " لأن نجوم السمـاء إذا أفلت ، وكانـت عجلة (الحرفـى) * مستمـرة فـى الدوران ، فعندئـذ سيغيـب الزمان الـلازم لقيـاس لفاتهـا " (١٧) .

هل هو حركة ما ؟ الإجابـة سالبـة أيضـا لأن كل حركة تكـون فـى الزمان . ومع ذلك ، ربمـا كان الزمان متوقفـا على الحركـة ،وعندئـذ فإن " مقيـاس هذه الحركة هو الجدير بأن يسمـى زمان " (١٨) . وهذا هو نفـس التعريـف الذى وجدناه عند أرسطو وطرحنـاه آنفـا ** .

ويظهر لقارئ " اعترافـات " أوغسطين أنه بعـد أن أخذ بهذا التعريـف الأرسطـى يعرب عن عدم رضـاه ، ويعتـرف بجهلـه المطبـق فيمـا يختـص بطبيعـة الزمان ، ويقول : (١٩)

(١٦) (16) Leibniz, "5 e Réponse à clarke", Op.Cit.

* فـى النسخـة الأصليـة (صانـع الأوانـى Potier) .

(١٧) (17) St. Augustin: "Confessions", trad. Janet, XI, 23, P. 322.

(١٨) (18) Ibid., XI, 24, P. 325.

** ص ١٤

(١٩) (19) "Confessions", XI, 25, Janet, P. 325.

" أعترف لك يا إلهى ، أننى مازلت أجهل ماهية الزمان":

ولكنه يقول أيضا :

" إذا لم يسالنى أحد عن الزمان عرفته وإذا سئلت عنه جهلته " (٢٠) .

وهكذا تظهر رغبة القديس أوغسطين فى الابتعاد عن تصور القدماء لماهية الزمان :

فإذا صح أن هذا التصور عند افلاطون كان كوسمولوجيا (٢١) وعند أرسطو رأيناه فيزيائيا مرتبطا بقياس الحركة ، فإننا نراه عند أوغسطين يتخذ بعدا سيكلوجيا يكشف عن أصالته وعن التقائه مع الاتجاهات الفلسفية المعاصرة .

يقول القديس أوغسطين عن قياس الزمان:

"فيك أنت يانفسى أقيس الزمان. لاتعترضى على: فهذا واقع. لاتعارضينى بالطوفان المتلاطم لاحساساتك. أقول إنه فيك أنت أقيس الزمان. فالتأثير الذى تحدثه فيك الأشياء العابرة يظل عندما تنقضى. إنه هو الذى أقيسه، وهو الذى يكون حاضرا وليست الأشياء التى أحدثته. فإما أن يكون الزمان هو هذا التأثير نفسه، أو أننى لا أقيس الزمان"(٢٢).

ويظهر لنا من هذا النص أن الزمان هو التأثير الذى تحدثه فينا الأشياء العابرة ، أى أنه إحساس ذاتى سيكلوجى باطن .

ولا نحسب أن وجهة النظر المعاصرة تختلف كثيرا عن هذا

---

(20) "Confessions", XI, 24, Janet, P. 325.

(٢١) راجع ص ١٢

(22) St. Augustin: "Confessions", trad. J. Trabucco, XI, 27, P. 278.

التصور.إذ نجد فيها الارتباط وثيقا بين الذاتية والزمانية . فعند سارتر.الزمانية هى البنية الأساسية للحقيقة الانسانية . وعند برجسون الزمان هو حياتى الداخلية بما تتضمنه من حركة واقعية ملموسة . وعند مارتن هيدجر ، لا انفصال بين الوجود والزمان . وآية ذلك أن واقعية الزمان عند هيدجر تتضح فى تلك اللفظة البسيطة والأساسية ، لفظة " الوجود " . فنسبة الوجود إلى ما يوجد لا تصح إطلاقا دون الزمان المتضمن فى الوجود بطريقة أو بأخرى . الوجود يتضمن الزمان إذا ، كما أن الزمان يتكشف بوضوح للحدس المعيش ، أى يتكشف فى خبرتنا المعيشة للوجود - فى- الزمان . والزمان فى النهاية ليس سوى البعد الرئيسى للوجود (٢٣) .

والذاتية صيرورة بالدرجة الأولى ، وهذا ما يميزها عن سائر الأشياء الجامدة . وأهم ما يميزها عن الأشياء الجامدة أيضا أنها تتجه نحو ما ستكون مستقبلا أو تتجه إلى ما كانت عليه من قبل . فالمستقبل والماضى اتجاهان لنفس حركة الارتقاء التى تعرف الذاتية .

والماضى ليس وجودا (كينونه) ، ومع ذلك فهو يكشف عن بعد من أبعاد الكائن الموجودl'être.

يقول أوغسطين :

"من الواضح لى الآن أن الماضى لا يوجد ، والمستقبل ليس أكثر تواجدا . ولا يصح القول بوجود ثلاثة أزمنة : الماضى والحاضر والمستقبل . وربما كان الصواب أن نقول بوجود ثلاثة أزمنة هى حاضر الأشياء الماضية ، وحاضر الأشياء الحاضرة ،

(23) HEIDEGGER Martin : "Le Concept de temps", Dans: (Cahier de l'Herne No 45, Ed. de l'Herne, Paris 1983), PP. 35, 36.

وحاضر الأشياء المستقبلة [illegible] الأخيرة"
والثلاثة هي "النفس" ولا أرى أنه يمكن أن توجد
في مكان آخر.
إن حاضر الأشياء الماضية هو الذاكرة، وحاضر
الأشياء الحاضرة هو الحدس، وحاضر الأشياء
المستقبلة هو التوقع "la prévision" (٢٤)

ويتضح من عبارة أوغسطين "أن الماضي لا يوجد" فهل هو عدم؟

إن الزمن بوجود الماضي ضمن معطيات التجربة الشعورية، (حالات سيكولوجية ماضية تركت مكانها لحالات أخرى حاضرة)، نجده في التصور الأمبيريقي للزمان، وهو الذي يكون فيه التجاور بين القبل والبعد، ويكون فيه الزمان مجرد تتابع، ويكون الماضي لحظة منعزلة، مما يترتب عليه إلغاء الصيرورة الزمانية؛

وحتى إذا صح أن الصيرورة الزمانية كانت تتابعا لحالات سيكولوجية، فمن المعروف لدينا أن الظاهرة السابقة تمهد للظاهرة لاحقة، وما كانت هذه الأخيرة لتظهر إلا لتحل محل الأولى. الأولى حاضرة إذن بشكل الماهية، وهذا هو "حاضر الأشياء الماضية" الذي تحدث عنه أوغسطين.

أما على افتراض أن الصيرورة الزمانية ليست تتابعا لحالات متجاورة، وهذا نجده عند برجسون: فإن الماضي يتعذر تصوره مستقلا عن التجربة الشعورية لأنه "تقدم مستمر يتجاوز الحاضر، وينخر في المستقبل، وينضخم دائما كلما تقدم" (٢٥). ففيه

(24) "Confessions", XI, 20, Janet, P. 319.

(25) BERGSON Henri: "L'Évolution créatrice", (Éd. ALCAN, Paris, 1939) P. 5.

تكمن الزمانية بأسرها ، وهذه الأخيرة ليست سوى " تمدد وتضخم distension " فيما يرى اوغسطين أيضا (٢٦) .

ولم يكن جان بول سارتر بعيدا عن هذا التصور الذى يصل الماضى بالحاضر . فهو يقول :

" إن المعنى الذى لدىّ عن الماضى إنما يتوقف بدرجة كبيرة على مشروعى الحاضر . وهذا لا يعنى مطلقا أن يتوقف مغزى أعمالى الماضية على هواى ، بل على العكس من ذلك تماما ، لأن المشروع الأساسى الذى أكونه * هو الذى يتوقف عليه مغزى الماضى بالنسبة لى وبالنسبة للآخرين " (٢٧) .

كما نجد عند المفكر المعاصر جاستون برجيه BERGER ما يعضد موقف أوغسطين أيضا . يقول برجيه :

" إذا قمنا بدراسة فينومينولوجية للعمليات التى تمكننا من التحقق من قضايا من نوع (حدث هذا فى الماضى) ، فإننا سنلاحظ أن الحاضر هو المجال الفريد لهذا التحقق . ففى الحاضر نسترشد بالنصوص ، ونقارن الوثائق ونسترجع الذكريات .

---

(٢٦) نلاحظ هنا تقاربا شديدا جدا بين مفهوم الديمومة عند برجسون والزمان عند أوغسطين .
فهذا الأخير عندما يقول أن الزمان ليس سوى "تمدد وتضخم" يتبع ذلك بتساؤل عن "ما الذى يتمدد؟" ثم يجيب "ربما كانت النفس ذاتها"
Voir: "Confessions", XI, 27, Trabucco, P. 277.

* الاشارة هنا إلى عبارة لسارتر يقول فيها " الانسان مشروع يعيش لذاته " .

(27) SARTRE J.P.: "L'Être et le Néant, collection Tel, Éd. GALLIMARD, 1943, P. 555.

والماضى لا يظهر فى الحاضر إلا لكى يلقى حتفه (٢٨)

وإذا تعذر علينا أن نمسك بالماضى مستقلا عن التجربة الشعورية ، فهل بمكننا أن نجده ضمن معطيات التجربة الموضوعية؟

إن العالم الموضوعى لا يعرف سوى الوجود والعدم . والتمييز بين الماضى والحاضر لا يحتمله أى واقع موضوعى . فكل ما يوجد إنما هو" حاضر " بالضرورة . وإذا أشار الجيولوجيون إلى صخور قديمة وصخور حديثة ، فالاشارة هنا إلى قراءة حاضرة تترجم واقعا حاضرا . وفى هذا يرى الأنثروبولوجى ليفى ستروس أن المتأمل لصخور يرجع تكوينها لحقبة زمنية معينة ،وإلى جوارها بعض الحفريات التى تشير إلى فترات زمنية أخرى وأيضا بعض النباتات المختلفة التى اختار كل منها نوع الصخرة التى ينمو عليها ، إن المتأمل لكل هذا فى نفس الوقت يعيش فى آن واحد كل العصور . فالآنية تحتوى تمايز الحقب التاريخية La synchronie enveloppe la Diachronie (٢٩) .

ونتساءل مرة أخرى ، هل الماضى عدم ؟

إذا قلنا مع اوغسطين أن" الماضى لا يوجد " ، فهذا يعنى أنه عدم ومع ذلك ، فعندما يقرر بأن " حاضر الأشياء الماضية هو الذاكرة " ، فإنه عندئذ ينسب إلى الأشياء الماضية حضورا لا يبرره سوى الوعى. فالماضى " لا يوجد إلا فى النفس " ، وعندئذ ترفع عنه صفة التناقض ، ويفهم على أنه انسجام مع الحاضر . والوعى الحاضر هو

(28) G. BERGER : "Phénoménologie du temps et prospective", (P.U.F, 1964), P. 115.

(29) Levi-strauss cl. : "Tristes Tropiques", (Éd. Plon, Paris 1975), P. 61.

وحده القادر على إعادة تركيب الماضى كما أنه يسمح بتجاوز التناقض المنطقى بين الوجود واللاوجود .

وهكذا يظهر لنا التقاء نصوص أوغسطين مع وجهة النظر المعاصرة . فالماضى ليس من المعطيات السيكلوجية أو الموضوعية ، وإلا كان من الطبيعى أن نسأل عن مكان وجوده عندما لا يكون متذكرا ، ويكون مثلنا كمثل من يسأل عن المكان الذى تسكنه الريح عندما لا تهب!

وجود الماضى إذا يتوقف على الوعى ، أو أنه على الأحرى يتوقف على " وعى حاضر " ، وهذا هو نمط الوجود الذى كشف عنه أوغسطين .

ولا شك أن هذا " الماضى الحاضر " يضفى معنى على الوجود ، أو أنه يكشف عن صفة أونطولوجية للذاتية ، فضلا عن أنه يبرر الاستمرارية التى يقطن فيها الحاضر . وتؤكد الأبحاث السيكلوجية المعاصرة أن الإنسان مدعم بماضيه خصوصا وأنه لا يدرى ما يفعل به الحاضر أو المستقبل . ومن ثم ، فربما كان فى الماضى ضمان ضد القلق . وهذا ما يفسر الحنين إليه فيما يقول الفيلسوف النرويجى هينريك إبسن IBSEN : " إن ما فقدناه نمتلكه للأبد " ! (٣٠) * .

وفى نص رائع لأوغسطين ،يكشف لنا عن القاسم المشترك بين حاضر الأشياء الماضية وحاضر الأشياء المستقبله فيقول :

" إذا كان المستقبل والماضى موجودان ، فإننى أريد أن أعرف مكان وجودهما . وإذا لم أكن قادرا على معرفة

(30) A. VERGEZ : "Nouveau Cours de Philo.", (Nathan 1988). t. II, P. 155.

* إبسن (١٨٢٨ - ١٩٠٦ م) . مؤلف أعمال درامية ذات طابع فلسفى .

ذلك ، فإننى أعرف على الأقل أنهما لايوجدان باعتبارهما مستقبلا أو ماضيا بل باعتبارهما حاضرا. وذلك لأنه إذا كان المستقبل موجودا باعتباره مستقبلا فإنه لم يوجد بعد، وإذا كان الماضى موجودا بصفته ماضيا فإنه لم يعد له وجود. و. ما يكن من أمر وجودهما فإنهما لايوجدان إلا من حيث كونهما حاضرين. وعندما نكوّن عن الماضى ... واقعية، فإن الذاكرة لاتمدنا بأشياء الماضى التى لم تعد موجودة بل بألفاظ بديلة عن صور الأشياء التى نقشت فى نفوسنا بصمات أثناء ورودها عن طريق الحواس. لطفولتى، على سبيل المثال، لم تعد موجودة. فقد أخفاها ماض غاب هو الآخر. غير أنى عندما أتذكرها أو أقُصّها لا أرى صورتها إلا فى الحاضر، لأن هذه الصورة مازالت فى ذاكرتى"(٣١).

ثم يتحدث أوغسطين عن رؤيته للمستقبل ويتساءل عما إذا كانت هذه الرؤية تتم هى الأخرى فى الحاضر فيقول

" هل التنبؤ بالمستقبل يسير على نفس النمط ؟ وهل الأحداث التى لم توجد بعد نمثلها مقدما فى نفوسنا صورا حقيقية ؟ أعترف لك يا إلهى أنى أجهل ذلك غير أن ما أعرفه هو أننا تعودنا على التفكير فى أعمالنا المستقبلية ، وأن هذا التروى المستقبلى ينتمى إلى الحاضر فى حين أن العمل المتروى لم يكن ليوجد بعد . وعندما نبدأه ، أى

(31) "Confessions", livre XI, chapitre, 18, trad. Trabucco, P. 267.

عندما نكون قد بدأنا فى إنجاز ما خططنا له ، عندئذ سوف يوجد العمل وسيكون فى هذه الحالة حاضرا لا مستقبلا " (٣٢) .

ويظهر من النص السابق أن تفكيرنا فى المستقبل حاضر . والعمل المستقبلى موجود بالقوة إلى أن يصبح حاضرا . ثم يحدثنا أوغسطين عن علامات حاضرة نتصور بفضلها أحداثا مستقبلة فيقول:

" مهما يكن من أمر هذا الاستشعار الغامض للمستقبل ، فإننا لا يمكننا أن نرى إلا ما يوجد . غير أن الموجود لدينا بالفعل ليس المستقبل وإنما هو الحاضر . وعندما نعلن عن رؤيتنا للمستقبل ، فإن ما نراه لا يمكن أن يكون أحداثا بذاتها لم توجد بعد ، لأنها على الأحرى ستوجد مستقبلا ، وإنما نرى عللا أو ربما علامات موجودة بالفعل وتبشر بظهور تلك الأحداث : وهذه العلل والعلامات ليست مستقبلة بل هى حاضرة وظاهرة للعيان ، وبفضلها نتصور المستقبل أو نتنبأ به عن طريق النفس . إن هذه التصورات موجودة بالفعل ، وأولئك الذين يتنبأون بالمستقبل يجدونها حاضرة فى أنفسهم " (٣٣) .

" وأود أن أستعين بمثال بليغ أختبر ضمن أمثلة أخرى عديدة . هو أننى أرى ضوء الفجر ، فأعلن اقتراب طلوع الشمس . إن ما يقع عليه بصرى حاضر

---

(32) Ibid, P. 268.

(33) Ibid.

، وما أعلن عن تدومه مستقبل . ليست الشمس الموجودة بالفعل وإنما طلوعها الذى لم يحدث بعد . ومع ذلك فإذا لم يكن لدى صورة ذهنية لهذا الطلوع ذاته كما هو الحال فى اللحظة التى أتحدث عنه فيها ، لم يكن من الممكن ان أتنبأ به . غير أن ضوء الصباح الذى الاحظه فى السماء ليس طلوع الشمس رغم أنه يسبقه ، وكذلك الحال بالنسبة للصورة التى أحتفظ بها فى نفسى : وكلا من الضوء والصورة حاضر ، فانا اراهما وأستطيع أن أقول ما سيحدث مقدما . المستقبل لم يزل غير موجود ، ولأنه لم يوجد بعد فهو غير موجود ، ولأنه غير موجود ، فهو لا يمكن أن يرى على الاطلاق على الرغم من أن من الممكن التنبوء به استنادا إلى العلامات الحاضرة الموجودة والمرئية " (٣٤) .

ويتضح من هذا النص الرائع لأوغسطين أن مجهود الذاكرة وكذلك المجهود النفسى الذى يبذل " للتنبؤ " بالمستقبل " يماثلان ما يطلق عليه العلماء اليوم " الوظيفة الرمزية " La fonction symbolique ، وهى قوة تنوب عن الأشياء وتذكّر بها ابتداء من العلامات أو الرموز الدالة عليها كما أنها قوة لافراز الدلالات . فالذاكرة التى تسترجع أحداثا ماضية ، والنفس التى تتوقع أحداثا مستقبلة لا يماثلان مستودعا تختزن فيه الأشياء ، كما أن تلك الأحداث وما لها من دلالات لايمكنها أن تختلط بالأشياء .

الذاكرة إذا ليست خزانة للمعلومات ، إنها وظيفة القصص La Fonction du récit . أما ما يسمى فعل التنبؤ فهو فى

---

(34) Ibid., P. 269.

الحقيقة توقع للمستقبل أو قراءة له لا تعتمد على منظار العرافين.

ويقول أوغسطين فى الكتاب العاشر من " الاعترافات " :

" إن الذاكرة قصر منيع . من خلاله تأتمر السماء والأرض والبحر بأسرى . ومن خلاله اتحكم فى جميع إحساساتى فيما عدا ما نسيته منها . وهى المكان الذى أواجه فيه ذاتى وأتذكر فيه نفسى : ما عملته فى الزمان والمكان وما مرت به من أحوال ؛ إنها مكمن جميع ذكرياتى ، ما تأسس منها على خبرتى وما نبع منها عن ثقتى فى الآخرين ...يا إلهى . إن قوة الذاكرة معجزة كبيرة ، إنها حرم مقدس لانهائى ، فهل ظهر من أمسك بها فى الأعماق ؟ " (٣٥)

يشهد تاريخ الفكر الفلسفى والعلمى منذ القدم وحتى الآن أنه لم يظهر " من أمسك بها فى الأعماق " . فطبيعتها تكاد تكون متناقضة لأنها غامضة أو لأنها تتجاوز قدرة الفهم وحدود العقل !

يقول الفيلسوف والمنطقى المعاصر ادموند جوبلو GOBLOT * عن الذاكرة

" إن هذه الظاهرة الحاضرة التى تخصنى ، ليست حاضرة ! " (٣٦) .

---

(35) "Les Confessions", Livre x, chap. vIII.

* جوبلو (١٨٥٨ - ١٩٣٥) ، فرنسى الجنسية، ولد فى مدينة مامير Mamers

(36) "La philo. en 1500 citations", op.cit., P. 110.

ويقول الفيلسوف الفرنسي تيودول ريبو Ribot ** :

" إن الذاكرة ظاهرة بيولوجية جوهرا وسيكلوجية عرضا " (٣٧)

وكان " ريبو " صاحب نظرية مادية تزعم أن تأثيرات العالم الخارجي (من أصوات وأفعال وطعوم . الخ) تطبع في خلايا المخ آثارا مادية هي التي تكوّن الذاكرة . كما تزعم أن العمليات السيكونيزيولوجية التي يتم بها التذكر تماثل الآليات التي تحدثها إبرة الحاكي (الفونوغراف) في مسارها على سطح الأسطوانة الفونوغرافية ، فتوقظ الموسيقى الكامنة فيها ! (٣٨) .

ومن المعروف أن هنرى برجسون قد تصدى لهذه النظرية المادية في كتابه المشهور " المادة والذاكرة " فهو يميز بين الذاكرة الحقيقية (الخالصة) ، وذاكرة العادة والأولى قوة روحية تتجاوز الزمان هي النفس ، أما الثانية فهي مجرد " عادة " أكثر من كونها " ذاكرة " (٣٩) . فتسميع قصيدة من الشعر " عادة " ، أما محاولة تذكر المرة الأولى التي قرأت فيها تلك القصيدة ، وأيضا ملابسات استظهارها ومكانه ، فهذه هي " الذكرى الخالصة " التي لا يحتويها مكان (المخ) رغم أنها تتحدد في الزمان الخالص أو الديمومة .

وعلى الرغم من أن نقد برجسون للنظرية المادية لا يخلو من طرافة لأنه لا يتعارض مع الأبحاث الإكلينيكية المعتمدة ، إلا أن

** ريبو ، مؤلف لـ " دراسات في علم النفس التجريبي " (١٨٩٢ - ١٩١٧ م)

(37) Ibid.

(38) "Nouveau Cours de Philo." t.II, Op.Cit., P. 158.

(39) Bergson H.: "Matière et Memoire", édition du Centenaire, (P.U.F., Paris 1959), P. 292.

المتلاحقة بالجسد ... بعد برجسون لا يوافقون على أن الماضي "المذكرة المخزنة" خارج الجسم، ولا بانحصار دور المخ على مجرد إظهار الذكريات التي تطابقها المواقف الحاضر (٣٠).

وفي هذا الخضم الهائل من أبحاث الأطباء وحجج الفلاسفة؟ تبقى الذاكرة سرا من الأسرار: إذ لم يوجد من "أمسك بها في الأعماق" (كما تمنى أوغسطين في القرن الخامس الميلادي) وليس لها على وجه التحديد موقعا أو مكانا أو حتى تصورا رغم الاستخدام المجازي لذلك المصطلحات لدى نص أوغسطين

ونتساءل: هل الزمان يفسر الذاكرة أم أن الذاكرة هي التي تفسر الزمان؟

يقول القديس أوغسطين:

> من يمكنه أن ينكر أن المستقبل لم يوجد بعد؟
> ومع ذلك ففي النفس، بكل تأكيد، انتظار الأشياء
> المستقبلة. ومن يستطيع أن ينكر أن الماضي لا
> وجود له؟ ومع ذلك يوجد في النفس ذكرى الأشياء
> الماضية. وأخيرا، من يمكنه أن ينكر أن الحاضر لا
> يمتد، أو أنه ليس سوى نقطة زائلة؟ ومع ذلك

---

(٣٠) لمن أراد الاطلاع على أمثلة من ردود فعل الفلاسفة والأطباء بعد برجسون، راجع:

A) M. MERLEAU-PONTY: "Phénoménologie de la perception", (GALLIMARD, Paris 1945), "La Temporalité", PP. 469-495.
B) J. DELAY: "Les Dissolutions de la mémoire", (Ed. P.U.F., Paris 1943).
C) M. HALBWACHS: "Les cadres sociaux de la Mémoire", (Ed. ALCAN. 1925).

فالانتبـــاه يدوم ، وبه يمر الشئ الحاضـر الذى يسـرع بالـزوال . وهكذا فإن الزمان المستقبــل لا يمكن أن يكون طويلا لأنــه لم يوجد بعـد ، فى حين أن المستقبــل الطويل هو طول انتظـار المستقبــل . وكذلك فإن الماضـى الذى لم يعد لـه وجود لا يمكن أن يكون طويلا : فالماضـــى الطويل ليس سوى طول تذكر الماضـى " (٤١) .

يتبيـــن لنـا من هذا النص أنه يميز فـى النفـس حالات ثلاث : انتظـار وانتبــاه وتذكـر ، وكلهـا تـرد إلى الحاضـر رغم أن الحاضـر ليس سوى " لحظة زائلة " غير ممتدة لأنهـا تمر بسرعـة من المستقبــل إلى الماضـى (٤٢) . فالحاضــر يتصف بالزمانيـــة لأنــه يمضى وإلا لوصف بالأبديـــة . ونحن لا نسميــه زمانـا بحق إلا لأنه يميل بلا توقف إلى أن يكون نفيـا للوجـود (٤٣) . وانطلاقـا من هذا الحاضـر القصيـر يمكننـا أن نتحدث عن طول أو قصـر الزمان سـواء أكان ماضيــا أو مستقبلا ، وذلـــك على الرغم من أن الطول والقصـر لا يلتقيـــان مع أى واقـع حال immanent (٤٤) * .

وإذا كنـا نعجز عن أن نقيس الماضـى الذى لم يعد له وجود ، ولا المستقبــل الذى لم يوجد بعـد ، فلا يبقـــى أمامنـا سوى الذاكـرة وما لديهـا من قدرة على الاحاطة بمجموع المد الزمانـى باعتبــاره حاضرا حيا.

(41) "Confessions", livre xl, chap. 28, trad. Janet, P. 331.
(42) Conf., xi, 15; Janet, P. 314.
(43) Conf., xi, 14; Janet, P. 314.
(44) Conf., xl, 28, Janet, P. 330.

* يحضرنا هنا تسـاؤل جانكليفيتـــش أستـاذ الفلسفـــة بالسربـــون : كيف أن سنوات العمر القصيـرة تكونت من هذه الأيـام الطويلـة ؟ جاء هذا فى كتابه "ميتافيزيقا الملل"
"La philo. en 1500 Citations", op.cit., P. 169.

يقول أوغسطين :

" نحن لا نستطيع مطلقا ، دون عون من الذاكرة ، أن نفهم كلا مركبا من آنات زمانية . فمهما كان المقطع اللفظى قصيرا ، فأقصر منه لحظة النطق بأوله ولحظة الوصول إلى آخره . إن النطق به يمتد إذن لفترة مهما كانت قصيرة : فهو يبدأ بأوله ويمر بمنتصفه قبل أن يصل إلى آخره . وهكذا يكشف الاستدلال عن أن الفسحة الزمانية أو المكانية يمكن أن تنقسم إلى ما لا نهاية " .

وكما أن المكان يتكشف لنا بالضوء ، كذلك فإن :

" الذاكرة كمثل الضوء الذى يسلط على آنات الزمان، إذ تمسك بها بقدر ما تستطيع ، وبطريقتها الخاصة"(٤٥)*

ومما تقدم تتضح العلاقة الوثيقة بين الذاكرة والزمان عند أوغسطين . كما يتضح دور الذاكرة على وجه الخصوص فى الامساك بالآنات الزمانية . " فالذاكرة حارسة الزمان " كما يقولون . وقد شهد معظم المعاصرين بأصالة فكر أوغسطين ، ووافقوه على ما ذهب إليه . ونستشهد فى ذلك بنص للمفكر المعاصر جاستون بيرجيه BERGER يقول :

(٤٥) "De Musica", livre VI, ch. VIII, in:
"Oeuvres Compètes de St. Augustin", Op. Cit., t. III, PP. 224, 225.

* من معانى الذاكرة أيضا عند أوغسطين أنها القدرة التى تسمح بوقف تيار الحاضر حتى تنبثق الذكرى .

" إن كل مجهود لتوضيح معنى الزمان يجرنا إلى الحاضر ، فقد لاحظ القديس أوغسطين بحق أن الماضى فى حقيقته ليس سوى نشاط الذاكرة ، وحقيقة المستقبل تكمن فى توقعه وانتظاره . وهكذا ينبغى تفسير الزمان بالذاكرة لا الذاكرة بالزمان " (٤٦) .

يبقى أن نتساءل عن دور الذاكرة فى قياس الزمان .وقد سبق أن رأينا فى بداية هذا البحث أن الزمان عند أرسطو هو القياس الواقعى للحركة .

يقول أوغسطين :

"إننى أقيس حركة الأجسام باستخدام الزمان . أما الزمان نفسه ، فهل فى مقدورى قياسه ؟ (...)

" ولكن ، ما الذى يعيننى على قياس الزمان ؟ هل يمكننى استخدام الزمان الأقصر لقياس الزمان الأطول كما استخدم " الذراع " * فى قياس الدعائم الخشبية ؟ نحن نرى جيدا أن الزمان اللازم لنطق المقطع اللفظى الكبير يقاس بزمان المقطع الصغير ، فيقال الأول ضعف الثانى (...) (٤٧)

---

(46) G. BERGER: Op.Cit., P. 116.

* " الذراع " ،وهو المسافة من طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى (خمسون سنتيمترا تقريبا) ، استخدم فيما مضى وحدة للقياس .

(٤٧) من المعروف فى الشعر اللاتينى أن الأبيات توزن بالتقابل بين المقاطع المختصرة والمقاطع الطويلة

" ومع ذلك فنحن لم نحصل على مقياس مضبوط للزمان : إذ من الممكن لبيت الشعر الأقصر أن يسمع فى وقت أطول لو تم تسميعه ببطء ، فى حين يستغرق إلقاء بيت الشعر الأطول وقتا أقصر تبعا لسرعة إلقائه (...)

ومن هنا يبدو لى أن الزمان ليس شيئا آخر سوى تمدد وتضخم distension . ولكن ما الذى يتمدد ؟ إننى لا أعرف على وجه التحديد ، وربما كانت النفس ذاتها . أسألك يا إلهى بحق رحمتك عما أعنيه عندما أقول ، بغير تدقيق ، أن " هذه الفترة أطول من تلك " ، أو بكل دقة ، أن " هذه الفترة ضعف الأخرى " ؟ إننى أعرف بهذا أنى أقوم بقياس الزمان . غير أنى لا أقيس المستقبل الذى لم يوجد بعد ، ولا الحاضر الذى لا يمتد ، ولا الماضى الذى انقضى . ما الذى أقيسه إذن ؟ هل هو الزمان حال انقضائه وليس الزمان الذى انقضى كما ذكرت من قبل ؟ (...)

ما الذى أقيسه إذن ؟ أين القصير الذى أقيس به وأين الطويل الذى أقيسه ؟ كلاهما فر وطار ، لقد انقضيا فلم يعد لهما وجود : وهأنذا أقيسهما وأجيب بكل ثقة ، (بقدر ما يستطيع المرء أن يركن إلى المعانى المستخدمة) : أن من الواضح أن أحدهما بسيط والآخر يستغرق ضعفه . غير أنى لا أقدر على ذلك إلا إذا انقضيا وانتهيا . أنا إذا لا أقيسهما طالما أنهما غير موجودين بل أقيس شيئا يظل منقوشا فى ذاكرتى " (٤٨) .

(48) "Confessions", livre xl, ch. 26 et 27, trad. Trabucco, pp. 275-277.

يلاحظ القارىء لهذا النص أن أوغسطين كان متقدما على زمانه بما يربو على أربعة عشر قرنا.

فالقول بأن الزمان "ليس سوى تمدد وتضخم" ، ثم ترجيح القول بأن "التمدد ربما كان فى النفس"، هذا كله نجده عند المعاصرين. فجلهم يجمعون على أن الزمان فى النفس وليست النفس فى الزمان. وقد وجدنا ذلك مثلا عند برجسون فى تصوره للديمومة على أنها "تقدم مستمر، يتضخم كلما تقدم"(٤٩). ونجده عند مارتن هيدجر الذى يقول "أنا الزمان"(٥٠). وكذلك كان جابرييل مارسيل يقول "أسيطر على المكان وأمتلكه فى حين أنه لا سيطرة لى على الزمان "Je suis le temps et "J'ai" l'espace (٥١) . وغيرهم كثير.

أما قول أوغسطين بأن " الحاضر لايمتد " أو أن "الحاضر لحظة زائلة"، كما جاء فى نص سابق (٥٢) ، فيكفى أن نقارنه بعبارة وليم جيمس فيلسوف "البراجماتية" المعاصر: "إن اللحظة التى أتحدث فيها تبتعد عنى " (٥٣).

ونلاحظ فى نص أوغسطين أيضا أنه بعد أن عرض لإمكانية قياس الزمان بمقارنة المقاطع اللفظية الكبيرة والصغيرة ، يعترف بأنه لم يحصل على مقياس مضبوط للزمان ، ثم تبين له أنه ربما كان يقيس النفس أو شيئا آخر كالذاكرة مثلا .

---

(٤٩) راجع ص ٢٠

(50) HEIDEGGER Martin: "Le Concept de temps", Op. Cit., P. 35.

(51) Cité par: A. VERGEZ, "Nouveau Cours de Philo"., (Nathan 1981), P. 121.

(٥٢) أنظر ص ٢٩

(53) Cité par: J. PUCELLE: "Le Temps", (P.U.F. 1967), P. 11.

وهذا القلق المترتب على الشك في إمكانية الوصول إلى مقياس مضبوط نجده عند المعاصرين . فالتعريف العلمى المعاصر لقياس الزمان يتضمن قياس المكان الهندسى الذى يعبره جسم متحرك حركة منتظمة . وهذا الزمان المجرد الذى يقيسه المكان الهندسى يشوه الزمان الحقيقى والديمومه الكيفية المعيشة لأنه ابن غير شرعى نتج عن التزاوج بين المكان والديمومه فيما يقول برجسون . والزمان الحقيقى لا يقبل القياس ، لأنه هو حياتى الداخلية بما تتضمنه من حركة واقعية ملموسة . وأى نظام نقحمه على أحوال الديمومة يعنى أننا ندخل المكان . يقول برجسون :

" إن الديمومة الحقيقية ، تلك التى يدركها الوعى ... ليست كما ، وبمجرد أن نحاول قياسها نستبدلها بالمكان دون وعى منا " (٥٤) .

وإذا قال أوغسطين - فى نهاية النص - " أنه يقيس شيئا يظل منقوشا فى ذاكرته " ، فإنه يتبعه فى موضع آخر بقوله : " فيك أنت يا نفسى أقيس الزمان " (٥٥) . وكان الفيلسوف برجسون يرادف هو الآخر بين النفس وبين " الذاكرة الحقيقية " فى كتابه " المادة والذاكرة " (٥٦) .

وبعد ، فمن خلال هذه العجالة السريعة يتبين للقارئ أن القديس أوغسطين قد حقق سبقا فكريا لم تدركه الفلسفات القديمة والحديثة ، إذ أرسى دعائم نظرية للوعى يمكن أن ترقى إلى المستوى الذى وصل إليه المعاصرون من أمثال برجسون أو هيدجر أو ميرلوبونتى

(54) BERGSON H. "Essai sur les données immédiates de la conscience", (Ed. P.U.F, 1948), P. 79.

(٥٥) راجع هذا النص كاملا ص ١٨

(٥٦) راجع ص ٢٨

وغيرهم . وقد رأينا كيف انعكست هذه النظرية فى مفهومه للزمان والنفس والذاكرة .

" لمحات من جهود الباحثين في مشكلتي الزمان والذاكرة " *

أولا : مشكلة الزمان :

أفلاطون : (٤٢٨ - ٣٤٧ ق م)

كانت الأسطورة الأفلاطونية عن خلق السماء تتمثل الزمان باعتباره " صورة متحركة للأزلية المتصفة بالوحدة والثبات " . فالزمان يرتبط بالحركة ، أو أنه صورة ديناميكية للأزلية ، أو " سلب للأزلية " حسب تعليق برجسون ** . نجد هذا التصور الأفلاطوني على وجه الخصوص في محاورة طيماوس .

أرسطو : (٣٨٤ - ٣٢٢ ق م)

تناول مسألة الزمان في الكتاب السابع والثامن من مؤلفه " في الطبيعة " وأيضا في الكتاب الثاني عشر من " ما وراء الطبيعة " . والزمان عند أرسطو ليس بالحركة وليس بسلبها ، وإنما هو قياس الحركة أو كم الحركة وفقا للقبل والبعد . وفي مقابل وجود الحركة في العالم الخاضع للكون والفساد يخلص أرسطو إلى الوجود الواجب ،

* لا نزعم القيام باستقراء تام لجهود جميع الباحثين دون استثناء ، وان كنا قد حرصنا على ذكر عينات ممثلة لمختلف العصور . وقد استفدنا بالتحليل البيبليوجرافي الذى قدمه جراتلو عن الزمان والذاكرة في كتابه التالي :

L. Grateloup: "Cours de Philosophie", Hachatte 1990, PP. 307-308, 463-464.

** H. BERGSON: "Durée et Simultanéité", (P.U.F, 1931), P. 84.

خارج الزمان لمحرك أول غير متحرك ، أزلى ، هو الله .

لوقريطس : (٩٨ - ٥٥ ق م) :

صاحب كتاب " فى الطبيعة " . رأى أن ذرات المادة التى تتكون منها الأجسام تتصف بالأزلية . وفى مقابل هذا فإن العالم كما يظهر لنا يتعرض للفناء بسبب ويلات الزمان . أما الطبيعة ، وهى غاية فى القوة ، فإنها لا تضن بإعادة خلق عوالم أخرى .

LUCRÈCE: "De la Nature", trad. H. Clouard, Éd. Garnier-Flammarion, 1964.

القديس أوغسطين : (٣٥٤ - ٤٣٠ م) :

إن الفصول التى خصصها أوغسطين لمشكلة الزمان فى "الاعترافات " والتى تضمنها الكتاب الحادى عشر فيه (فصول من رقم ١٣ إلى رقم ٢٨) ، تمثل فتحا جديدا أمام الفكر الانسانى فى مجالات " الاحساس العميق بالزمان " و "الزمانية والذاتية" و "ارتباط الزمان بالذاكرة" .

مونتانى : (١٥٣٣ - ١٥٩٢ م) :

كان مونتانى يتعايش مع الديمومة ويجافى الأزلية . وهو لا يشكو من عجز الانسان أو قصر العمر ، ويرى أن أعظم انجازاتنا أن نتوافق مع ظروف حياتنا دون ملل .

MONTAIGNE: "Essais", (Éd. Garnier, Paris 1952), Livre II, Ch. 12&Livre III, Ch. 2, 13.

ديكارت : (١٥٩٦ - ١٦٥٠ م) :

فى كتاب " المقال عن المنهج " يظهر لنا أن الاعتبارات الخاصة بالزمان المعيش إنما تحتل قلب المذهب والمنهج عند ديكارت . يظهر ذلك على وجه الخصوص فى نهاية القسم السادس من كتاب المقال .

بسكال : (١٦٢٣ - ١٦٦٢ م) :

أول من عبر عن فكرة الاتصال التاريخى للبشرية . فما يحدث لشخص فى سنى عمره المختلفة ، من استمرارية اكتساب الخبرة، يماثل ما يحدث للبشرية على ممر العصور من استمرارية النمو العاطفى والعلمى أو العقلى .

PASCAL B. : "Pensées et Opuscules", (Éd. Brunschvicg, Hachette, Paris 1912), P. 80.

كانط : (١٧٢٤ - ١٨٠٤م)

إن تحليل كانط لمشكلة الزمان كان تحليلاً رائدا : فالزمان لا وجود له فى ذاته بل هو "صورة قبلية للحساسية" . يقول كانط :"إن الزمان ليس شيئا آخر سوى صورة الحس الباطن ، أى الحدس المنصب على ذواتنا الباطنة" و "الزمان شرط صورى قبلى لكل الظواهر بوجه عام"!

KANT: "Critique de la Raison Pure", trad. BARNI, (Ed. Flammarion, Paris 1950), Esthétique transcendantale", 2 e Section, P. 73.

هيجل: (١٧٧٠ - ١٨٣١ م)

إن الحقيقى يظهر بطبيعته عندما يأتى زمانه . والتاريخ الكونى هو تكشف " الروح " فى الزمان كما أن الطبيعة هى تكشف " الفكرة " فى المكان . و" الروح " لا تنتمى إلى الماضى أو إلى المستقبل بل هى حاضر آنى .

HEGEL, "La Raison dans l'histoire", Éd. Plon, 1965, PP. 183, 214.

أوجست كونت : (١٧٩٨ - ١٨٥٧ م)

إن تصور الزمان باعتباره عاملا مؤثرا فى عملية النمو يكتسب أهمية خاصة فى ظل الفلسفة الوضعية عند كونت . فقانون الحالات الثلاث هو الذى يفسر نمو الذات الانسانية الفردية والجمعية خلال الزمن . فكل منا يبدأ لاهوتيا ثم يصبح ميتافيزيقيا وأخيرا يصل إلى النضج . وهذه الحالة الأخيرة هى المرحلة الوضعية التى تتوج النمو الذهنى والأخلاقى للبشرية .

A. COMTE: "Système de Politique Positive", t. IV, Éd. Société Positiviste, Paris 1929.

كييرك جارد : (١٨١٣ - ١٨٥٥ م) :

كل المجهود الفلسفى الذى قام به كييرك جارد يستهدف تفسير العلاقة بين الزمان والأزلية. فهو يطرح جانبا كل التعريفات الفلكية أو العلمية أو المكانية للزمان : فالزمان لا يتكشف معناه بحق إلا فى علاقته بالأزلية . ونحن لا يمكننا أن نميز الحاضر والماضى والمستقبل إلا انطلاقا من الأزلى الحاضر دائما . واللحظة هى نقطة التقاء الزمان بالأزلية . ومن هنا كانت أهمية القرار الذى تحتمه الديانة : " فإما الخلود فى الجنة وإما الخلود فى النار " . واتخاذ القرار لا يكون إلا فى الزمان .

S. KIERKEGAARD: "Le Concept d'angoisse", trad. Tisseau, Alcan, 1935.

هنرى برجسون : (١٨٥٩ - ١٩٤١ م) :

الديمومة هى الزمان الحقيقى ، وهى نسيج متشابك يشمل الأشياء والصيرورة معا . وحدس الديمومة خلق مستمر . والذات

الجوانية هي التي تجعلنا نشارك في الصيرورة الكونية باعتبارنا جزءا منها .

H. BERGSON: "Essai sur le données immédiates de la conscience", (P.U.F 1948).

إدموند هوسرل: (١٨٥٩ - ١٩٣٨ م) :

إن الوعي الحاضر المنصب على الزمان هو الواقع الحقيقي ، وذلك وفقا لاتجاهات القصدية الثلاثة : الإدراك (حاضر) ، والانتظار (توقع) ، والاسترجاع (تذكر) . والآفاق المستقبلية للزمان لا تخبئ موتا أو عدما بل هي تتضمن " الحقيقة " التي تتضافر جهود الذوات من أجل الكشف عنها .

Ed. HUSSERL: "Leçon pour une Phénoménologie de la Conscience intime du-temps", trad. H. Dussort, P.U.F., 1964.

مارتن هيدجر: (١٨٨٩ - ١٩٧٦ م) :

يتبنى هيدجر ما يمكن أن نطلق عليه اسم " أونطولوجيا سَلْبِيّة ". ووفقا لهذه الأونطولوجيا ، فإن الآفاق المستقبلية للزمان لا تبشر بحقيقة أو " عدالة " بل تخبئ الموت والعدم .

m. HEIDEGGER: "Être et Temps", trad. F. Vezin, GALLIMARD, 1986.

ثانيا :مشكلة الذاكرة :

أفلاطون :

عند أفلاطون ، " المعرفة تذكر " : فما نجهله تماما وما ليس لدينا عنه أي فكرة لا يمكن أن يكون موضوعا للمعرفة . وهو يشرح ذلك في محاولة فيدروس ويرى أن عمل الذكاء البشري هو الانتقال من الكثرة إلى الوحدة ، من حشد المدركات الحسية إلى وحدة تجمعها هي

المثال Idée . ويتم ذلك بعد تذكر الوقائع السامية التى سبق أن عايشتها أرواحنا فى عالم المثل .(Phèdre, 249 bc)

أرسطو :

علم النفس جزء من العلم الطبيعى عند أرسطو . والذاكرة تنبثق عن مبدأ الحس . ومن الممكن أن نجد عنده أول تصور لنظرية سيكوفيزيولوجية للذاكرة .

القديس أوغسطين :

(يكتفى بما جاء عنه فى متن هذا البحث) .

ديكارت :

إن مشكلة الذاكرة لم تكن غائبة عن فكر ديكارت ، وهو الذى لم يتنازل عن ثنائية الفكر والبدن كما لم يتنازل عن تمازجهما . إنه قد فتح الطريق أمام الدراسة السيكوفيزيولوجية للذاكرة ، وهى الدراسة التى توفق بين إمكانية التفتح الذهنى الحر وبين تعلق النفس بدعامة مادية هى الجسم .

راجع بهذا الخصوص : رسائل ديكارت : إلى ميرسن ، أول ابريل سنة ١٦٤٠ م ؛ وإلى ميلاند Mesland ، ٢ مايو سنة ١٦٤٤ م ؛ وإلى أنطوان أرنو ، ٢٩ يوليو ١٦٤٨ م .وأيضا يراجع كتابه : "انفعالات النفس" مادة ٣١ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٥٣ ، ٧٠ - ٧٨ .

ريبو (تيوديل) : (١٨٣٩ - ١٩١٦ م) :

مؤلف كتاب " أمراض الذاكرة " ،ومؤسس علم النفس التجريبى. والذاكرة عنده ظاهرة بيولوجية أثبتتها لديه دراسات وأبحاث فى

أمراض الذاكرة . يقول في كتابه سالف الذكر . إن " هضم المعلومات " ليست صيغة بلاغية بل حقيقة واقعية .

Th. RIBOT: "Les Maladies de la Mémoire", Éd. Alcan, 1881, P. 157.

هنري برجسون :

اشتهر بكتابه " المادة والذاكرة " ، وفند مزاعم ريبو . وهو يميز بين " الذاكرة الخالصة " وبين " العادة " ، واعتبر الأولى مرادفة للنفس ومتجاوزة للمخ وقادرة على حمل صفحة الحياة الماضية بكل تفاصيلها .

H. BERGSON: "Matière et Mémoire", (P.U.F., Paris 1959).

موريس هالبواش : (١٨٧٧ - ١٩٤٥ م) :

صاحب دراسات في علاقة علم النفس بعلم الاجتماع . ومن مؤلفاته كتابان عن الذاكرة : " الأطر الاجتماعية للذاكرة" و"الذاكرة الجمعية". وفي مقدمة الكتاب الأول يؤكد هالبواش دور الأطر الاجتماعية في عملية التذكر ثم يضرب مثلا بطفل لا يزيد عمره عن تسع أو عشر سنوات ، هجر قومه وبلده إلى بلد يتحدث لغة غير لغته ، فلم يعد يجد شيئا مما كان يألفه من قبل . ولاحظ هالبواش أن مثل هذا الطفل في نطاق الأطر الاجتماعية الجديدة يفقد القدرة على تذكر كل ما كان من الممكن أن يتذكره بسهولة من قبل وهكذا يظهر أن الأطر الاجتماعية والذاكرة الجمعية هي التي ينصهر فيها الفكر الفردي ومن خلالها يتم التذكر .

M. HALBWACHS:" Les Cadres Sociaux de la Mémoire, Alcan, 1925.
: "La Memoire Collective", P.U.F., 1950.

بيير جانيه : (١٨٥٩ - ١٩٤٧ م):

هو مؤلف كتاب " مفهوم الزمان وتطور الذاكرة " . واشتهر بنظريته في " علم نفس السلوك " . ويعرف جانيه الذاكرة بأنها " سلوك القصص " ، ووظيفتها اجتماعية بالدرجة الأولى . وفي حين كان برجسون يجعل " الذاكرة الخالصة " مرادفة للنفس ، يصرح جانيه بأن " الذاكرة من الأنشطة الدنيا للنفس " . يقول جانيه في كتابه المذكور : " الذاكرة هي رد فعل اجتماعي في مواجهة الحرمان . وفعل التذكر اختراع إنساني يماثل تلك الأفعال التي نعتبرها بسيطة لاعتقادنا بكونها تنبثق عن حياتنا الجوانية في حين أنها تكونت تدريجيا بجهود أصحاب المواهب ... إن هدف الذاكرة هو الانتصار على الحرمان ، والكفاح في مواجهة الحرمان أهم ما تتميز به الذاكرة " .

P. JANET: "L'Évolution de la Mémoire et la notion du Temps", Éd. Chahine, 1928, P. 220.

فريدريك نيتشه : (١٨٤٤ - ١٩٠٠ م) :

كتب نيتشه تحت عنوان : " الخطأ وسوء النية وما يماثلهما " : " إن هذا الحيوان المحكوم عليه بالنسيان (الانسان) ، والذي كان النسيان له قوة ومظهرا لقوة صحته ، قد خلق لنفسه ملكة مناهضة هي الذاكرة ، يستعين بها ، في بعض الحالات ، في مواجهة النسيان - في حالات الوعد مثلا ... " .

NIETZSCHE: "La Généalogie de la morale,", trad. H. Albert, Mercure de France, 1948, P. 86.

مراجع البحث

1. AUGUSTIN St. : "Confessions", Ed. Garnier 1964 & bib. Charpentier 1919.
: "Oeuvres Complètes", Ed. L. Vives 1873.

2. BERGER G. : "Phénoménologie du temps et prospective", (P.U.F, 1964).

3. BERGSON H. : "Matière et Mémoire", édition du Centenaire, (P.U.F., 1959).

4. : "Essais sur les données immédiates de la conscience", (P.U.F., Paris 1948).

5. : "Durée et simultanéité", (P.U.F., Paris 1931).

6. : "L'Evolution Créatrice", (Ed. Alcan, Paris, 1939).

7. DUROZOI G. : "Philosophie teminale", (Ed. Nathan 1989).

8. GRATELOUP L. : "Cours de Philosophie", (Hachette 1990).

9. HALBWACHS M. : "Les Cadres Sociaux de la Memoire", (Alcan, 1925).

10. HEGEL : "La Raison dans l'histoire", coll. 10-18, (Ed. Plon, 1965).

11. HEIDEGGER Martin : "Le Concept du temps", dans: (Cahier de l'Herne No 45, Ed. de l'Herne, Paris 1983).

12. HUISMAN D. : "La Philosophie en 1500 Citations", (F. Nathan, 1963).

13. HUSSERL Ed. :"Léçons pour une Phénoménologie de la conscience intime du temps", trad. Dussort, (Ed. P.U.F., Paris 1964).

14. JANET P. : "L'Évolution de la Mémoire et la notion du Temps", (Ed. Chahine, 1928).

15. kANT E. : "Critique de la Raison Pure", trad. BARNI, (Ed. Flammarion, Paris 1950).

16. KIERKEGAARD: : "Le Concept d'angoisse", trad. Tisseau, (Ed. Alcan 1935).

17. LEVI-STRAUSS CL. : "Tristes Tropiques", (Ed. Plon, Paris 1975).

18. MERLEAU-PONTY M. : "Phénoménologie de la Perception", (Ed. GALLIMARD, Paris 1945).

19. PASCAL B. : "Pensées et Opuscules", (Ed. Hachette, Paris, 1912).

20. PUCELLE J. : "Le Temps", (P.U.F., 1967).

21. SARTRE J. : "L'Être et le Néant", Coll., Tel., (Ed. GALLIMARD, 1943).

22. SIVADJIAN J. : "Le Temps" (Ed. Hermann, Paris 1938).

23. VERGEZ A. : "Nouveau Cours de Philo"., (Ed. F. Nathan, Paris 1981).

تم بحمد الله ،

رقـم الايـــداع
١٩٩١ / ٥٠٧١
مؤسســة الفتــح للطباعــة والنشــر